

القاهرة في العيد

للدكتور زكي مبارك

والأحاييس ، وأهل الجنة أراحهم الله من هذا الجهاد
والبادية مجال لسيادة الفضيلة في رأى أهل الدين لأنها توحى
إلى القلوب معاني الزهد والتصوف فيتمتع الطمع أو يكاد ،
وبانعدام الطمع تزول أسباب الدس والكيد والظور وانهمتان

هنا القاهرة

أليس كذلك ؟

بلى ، وأنتم جميعاً تعرفون !

كنا نسمع في عهد الطفولة أن الشياطين تقيّد في رمضان ،

ثم يحل وثاقها بذلك

ولكن وزارة الأوقاف أو مشيخة الأزهر في مصر تعرف
أن الشياطين تنجو من الأصفاة والأغلال في مكان واحد : هو
القاهرة ، ومن أجل ذلك بترك الوعاظ أعمالهم في الأقاليم التي
قيدت فيها الشياطين ويفقدون للوعظ في مساجد القاهرة التي لم
تقيد فيها الشياطين

وإنما كان الأمر كذلك لأن القاهرة مدينة عظيمة جداً من
الوجهة الاقتصادية . والعظمة الاقتصادية هي الأساس لجميع
المشكلات ، وهي مصدر الحروب ، وهي مثابة الشياطين

وعند النظر في هذه الدقائق نعرف كيف فطنت وزارة
الأوقاف إلى سوق الوعاظ إلى القاهرة في أيام رمضان

ولكن هل شمعت الجمارك بأقوال الوعاظ في رمضان ؟

رهل بسر الحكومة أن تشعر الجمارك بأقوال الوعاظ في رمضان ؟

ليتي أملك حرية التعبير عما أريد أن أقول ،

لو كنت أملك حرية التعبير لقلت : إن في مقدور الحكومة
أن تراقب الجمارك في شهر رمضان ، ولو نصد لاستراح الوعاظ
من محاربة الشياطين في رمضان

ولكن الحكومة لن تفعل ، لأن هناك شيطاناً يصدها عن
ذلك هو شيطان المدينة الذي يجعل حرية التجارة من الشرائع .
وهذا الشيطان الأعظم هو الذي جعلنا نركهي ونحتال كلما تذكرنا
أن القاهرة أ- ن- لم مدينة في الشرق

أترك هذه الفلسفة وأشعر في كلام آخر قد ينفع بعض النفع

لم يبق شك في أن القاهرة أجل مدينة في الشرق ، وقد
— تكون فيها خصائص لا تعرفها باريس ولا برلين . وترجع تلك
الخصائص التي تفردت بها القاهرة إلى ما فيها من اختلاف الألوان
والأذواق ؛ فهي ملتقى للحضارات الشرقية والغربية ، وملتقى
للصحيح والعليل من العقائد والمذاهب . فالسالمون ألوان ،
والنصارى أشكال ، واليهود أخفاف . وفيها مع ذلك ناس
لا يدينون بغير الهالك على مطالب الشهوات والحواس
والمدينة العنيفة هي ذلك . هي اصطراع الشك واليقين ،
والنقى والرشد ، والهدى والضلال : وليست المدينة أن يهتدى
— الناس جميعاً أو أن يضلوا جميعاً ؛ وإنما المدينة في تعقيد المذاهب ،
واشتباك العقائد ، وتناحر الأجناس . هي تلك الصورة التي توجب
أن تقوم الحانة بجوار المسجد ، وأن تدق أجراس الكنيسة بين
المواخير ، وأن تكون في الجامعات أركان يخلو فيها المقامرون ،
كالذي كنا نراه في أروقة السرربون

تلك هي المدينة . فلا تمجبوا إن رأيتم من رجال الدين من
يلطخها بالسواد في الخطب والخطبات ، لأن رجال الدين لا يتمثلون
سيادة الفضيلة إلا في مكانين : الجنة والعجرا

وإنما كانت الجنة مجالاً لسيادة الفضيلة لأن أهل الجنة أعفهم
القادير من النضال في سبيل الأرزاق . والنضال في سبيل الأرزاق
هو الأصل في خلق الضنائن والأحقاد ، وهو الذي بلبل أهواء
المالين فأغرامهم بالقتال حول المذاهب الاقتصادية ، والمسالكة
الداشية .

ومن فضائل الجنة أنها ستبيح الناس جميع ما يشتهون من
رغائب الحواس ، وبذلك ينعدم القلق الذي يساور أصحاب القلوب
والأذواق . ولعل هذا هو السر في خلوة الجنة من اللشراء
والكتاب والمكرين ، فاسمنا أن الجنة ستكون فيها خطب
أو قصائد أو مقالات أو مؤلفات ، لأن هذه الفنون الأدبية
ليست في الواقع إلا صورة من ثورة المواظف والأذواق

أنا أقضى العيد في القاهرة ، وهي أول مرة أعرف فيها
ملاعب القاهرة في العيد

فقد كنت في الأعوام السراية أقضى العيد في سنترس
قبل أن يرزاني الدهر بموت أبي ، ثم شاءت المقادير ألا أعرف
العيد فيما عدا ذلك إلا في باريس وبنداد ، فقد دخلت باريس أول
مرة في يوم عيد ، ثم خرجت منها بعد أداء امتحان الدكتوراه
في يوم عيد ، وأنا أواجه العيد في القاهرة بعد عيدين قضيتهما
في بنداد ...

فهل يكون عجيباً — وهذا حال — أن أفرح بالقاهرة
في العيد ؟

أنا في عيد أيها الناس ، فدعوني ألهو وألعب يوماً أو يومين !
هذا هو العيد ، وتلك هي القاهرة

فاعذروني إن جئت وفتنت بالقاهرة في يوم عيد
لن أذهب إلى نادي المعارف في بنداد لأسأل عن رؤية الهلال ،
ولن أقضى مساء الشك بمنزلي في شارع الرشيد
وما الموجب لذلك ؟ لقد صمنا رمضان ثلاثين يوماً ولم يبق
إلا أن نواجه الباسمين والباسحات في شارع فؤاد
إلى والله ، هذا شارع فؤاد في ليلة عيد !

وهل ينتظر شارع فؤاد ليلة العيد ؟
وهل رأى الناس في مشرق أو مغرب شارعاً مثل هذا
الشارع في الحيوية والابتهاج والانشراح ؟
إن شارع فؤاد لا ينتظر ليلة العيد ، فجميع أيامه ولياليه
مواسم وأعياد

وما ظنُّ القاريُّ بشارع يشهد بأن القاهرة أجمل بقعة
في الأرض وأنها طليعة الفردوس ؟

ما ظنُّ القاريُّ بشارع يتوَّج فيه الحسن ويصطنع فيه
الفتون ؟

ما ظنُّ القاريُّ بشارع يراه أصحاب الأذواق من المراض
الدولية للصباحة والملاحاة والجمال ؟

ما ظنُّ القاريُّ بشارع يشاهد على أن القاهرة أصبحت
أول مراجع من مراجع الشعر والخيال ؟

وما عسى أن أقول في شارع كان ولا يزال أعظم مصدر من
مصادر الرحي لشعراء وادي النيل ؟

نحز في شارع فؤاد ، وهذا مشربٌ كُتِبَ على بابه بأحرف
من النور الوهاج :

رمضان وتلى هاتماً ياساقى مشتاقاً تسمى إلى مشتاق
رمضان وتلى ؟ رمضان وتلى ؟
وهو كذلك !

هاتماً يا غلام !

وما أكاد أنطق بهذا اللحن الطروب حتى يدخل شيخ من
أعلام رجال الدين فيقول : ما أتى بك ههنا يا دكتور !

فأجيب : أنا في ضيافة أبي حنيفة النمان !

ويسارع الشيخ فيطلب كأساً من قهوة أبي الفضل لاقهوة
أبي نواس

وينبني النجمل والتوقر فأطلب كأساً من قهوة أبي الفضل
وأصدق من قهوة أبي نواس

وما هي إلا لحظة حتى نشبك في جدال مريع ، ثم يتوافد
أمثاله وأمثالي ، فتتحول الحانة إلى حلقة من حلقات الأزهر
الشريف ، وينظر إلينا غلمان الحانة مهوئين مذعورين

كيف تنقلب الحانة إلى مثل ما انتقلت إليه في ليلة عيد ؟
وكيف أهود شيخاً متجرباً متفطناً لا يعرف غير جدال
الفقهاء ؟

أيها الشيخ

صدوت نفسي ، صدأ الله نفسك !

ولكن لا بأس ، فتلك هي القاهرة التي بشارع فيها الهدى
والضلال ؟

خرجت من الحانة مصدوع الرأس من قهوة أبي الفضل
ومن الجدال حول الحرام والحلال ، فأين أذهب ؟

أين أذهب ؟ أين أذهب ؟

هذا صديق خفيف الروح ، ولكنه أيضاً معتمٍ وإن كان
يحمل للطربوش ، ذلك بأنه يحمل فوق قلبه عمامة أضخم من

ذلك الحى ، أن له أن يفكر فى تنظيم هيئة خالية من المطامع
تشرف على الجوانب الاجتماعية والاقتصادية فى الحى الأزهرى ،
فإن لم يفعل فسيجئ عواقب الإهمال بمد حين .
أيها القاهرة

ماذا تُظهرين وماذا تُضميرين ؟
إكشفي انقناع قبل أن يمزقه القلم أقبح تزويق

مضت ليلة العيد وجاء يوم العيد
الدنيا تموج بالحاسن والمفان فى كل أرجاء القاهرة ، وكل
كان فى القاهرة مباح إلا الحداث
ولماذا ؟ لأن النعيم بمحذات القاهرة مقصور على أطفال
الملاحى فى يوم العيد
الحمد لله

« لا يزال فى القاهرة مجال للطيبات »
أما بعد فقد انقضت أيام العيد ، وبقيت يا قلبى بلا عيد
أين أيامك يا قلبى وأين ليالك ؟
وما حفظك من هذه المدينة التى تموج بالسحر والفتون ؟
أكل حفظك أن يطوف بك العقل حول هذه الأشواك ؟
ليت عهدك بالنوابة كان طال ، وليت الأقدار رحمتك من ثورة
العقل فى هذه الأيام

كتب عليك يا قلبى أن تعيش بين أدغال المدينة ، حيث
لا يحنو قلب على قلب ، ولا يأنس روح بروح ، ولا تألف نفس
مع نفس ، إلا بروابط وثيقة من أصول النافع ، وآه ثم آه من
عصف النافع بأهواء القلوب
أترانى غدرت بك ، أيها القلب ؟

احذر أن يتر هذا فى وهمك ، فإ كنت إلا أكرم صاحب
وأشرف صديق

ومل غدرت بأحد حتى أغدر بك ؟
لقد عانيت فى سبيلك ما عانيت فطوت بالمهاك والماعاب
لأروى ظمأك المشوب ، ولأريك ملاح الأهل فى القاهرة
والاسكندرية وباريس وبغداد

عمامة الشيخ الفصالى ، وما رأيت للشيخ الفصالى ولكن
عمامته سارت مسير الأمثال . وكان هذا الصديق معتم القلب
لأنه يمشى رجال الدين بالأزهر الشريف
وإن أذهب فى ليلة العيد مع هذا الصديق المطربش الرأس
المعم للقلب ؟

هل أردت إلى مشارب القهوة والشاي فى حى سيدنا الحسين ؟
أغلب الظن أنه ينشئ السهر بمقط اللوى بين شارع الأتني
وشارع إبراهيم

رباه ما هذا الذى أسمع ؟
لقد سميت أشياء لم تكن تخطر فى البال . فهل أستطيع
أن أصرح ؟

هل أستطيع أن أقول إن حى الأزهر صار قطعة من القاهرة
- تشتبك فيه نوازع الرشد والفتى ، والهدى والضلال ؟
أنا أهرق أن الأماكن التى تصطبغ بالصيغة الدينية تنتفع
من الانتماء بسمة الدين . ولكنى أنكر أن يصل الجشع ببعض
الناس إلى الوقوع فى مهالك الانتفاع .

يجىء جماعة من جاوة أو من الهند أو من الصين للاستصباح
بنور الأزهر الشريف فيحيط بهم ناس لا يؤذهم أن يستغلوا
سمة الأزهر أسوأ استغلال

ولو كان هؤلاء المستغلون تجاراً خلف الأمر وهان . ولكنهم
يتصلون بناس لهم فى المآهد الدينية مكان ، ولهم مع رجال
الدين صلات .

فهل يعرف هؤلاء النافلون خطر ما يجنون على الأدب
والوطنية حين يستبيحون « استغلال » بعض الوافدين على
الأزهر من أهل جاوة والهند والصين ؟

إن من حق الحى الأزهرى أن ينتفع من صفته الدينية .
ولكن من واجبه أن يراعى أصول الأدب والذوق فلا يفارقه
زائر إلا وهو معمور القلب بأطيب الذكريات ، فمن العيب أن
نشوه سمة الأزهر وسمة مصر لنحصل على منافع خبيثة لا ينصب
لها ميزان .

وقد آن لشيخ الأزهر أن يعرف أنه مسئول عن كرامة

مقالات في كلمات

للأستاذ محمود غنيم

الحياة والأمل

قالوا : إن فرعون حينما أراد أن يبالغ الأسباب ، أسباب السموات فيطلع إلى إله موسى ، هي له تابوت ذو أربعة أعمدة ، ثم علق في أسافل تلك الأعمدة أربعة نسور خاص ، وفي أعاليها أربعة حملان مسلوخة الجلود ، ثم استقل فرعون التابوت فانطلقت للنسور تشق أجواز الفضاء ، تمني نفسها حبثاً بذلك اللحم الغريز ، ثم كان من أمرها ما كان

وما أظن أنك في هذه الحياة إلا أشبه بتلك النسور ، وما أظن الغاية التي تسعى إليها أقرب من تلك الحملان ، مع تعديل طفيف في طرق التشبيه ، فنسور فرعون نسي وراءه أمنية لا يتسنى تحقيقها ، ونحن كلما تحققنا لأحدنا أمنية أسلمته إلى أخرى ، وهكذا يقضي الإنسان عمره وراء سلسلة من الآمال متصلة الحلقات غير متناهية ، حتى يخر صريعاً وأمانيه حوله ، وقد حال بينهما من الموت سد منيع

هذا طالب ينشد شهادة ، وهذا حامل شهادة ينشد راتباً ، وهذا ذو راتب يريد أن يتضاعف ، إلى آخر تلك السلسلة التي لا تنتهي حلقاتها

ثم هذا شاب يريد أن يتزوج ، وهذا زوج يريد أن يتجمل ، وهذا فاجل يريد أن يرى أنجاله رجالاً ، إلى آخر تلك السلسلة التي لا تنتهي حلقاتها

ثم هذا قائد يريد أن يكون وزيراً ، وهذا وزير يريد أن يكون أميراً ، وهذا أمير يريد أن يوطد نفوذه أو يوسع رقعة ملكه قالوا لنا بليون ذات عشية : إذ كان برصد في السماء الأنجم بعد افتتاح الأرض ماذا تبتي ؟ فأجاب أنظر كيف أفتتح للسماء الحياة نار مشبوبة وقودها الأمل ؛ وهي قطار ، وهو بمنزلة البخار ، وإن للطبيعة في خداع الناس عن هذا الطريق أفانين ، فهي تزين للإنسان الغاية من الثمات ، فيدعى إخمصه سعيّاً وراء

وما زلتُ أتألف بك يا قلبي وأترقب ، وهل صادقتُ من صادقتُ من كبار الكتاب والشعراء إلا لأزف إلى رحاك كرائم المعاني ؟

ولكنك - مع فضلي عليك - تلقاني باللؤم في بعض الأحيان

وإلا فإني حجتك في الهيام بعروس الزمالك ؟

عرفتُ حجتك يا قلبي ، أنت تريد أن تصدني عن الحنف الذي ينتظرن في البلاد الذي أعرف وتعرف

أنت تريد أن تصدني عن « الحبيبة الوفية » التي ترسل بعض جدائلها المطرة في كل خطاب ولم تغفر مني بجواب ، شكر الله فضلها الجميل وعفاهني

عرفت حجتك يا قلبي ، فأنت تريد أن تقول :

ومحبسُ نسوان من الجهل أني إذا جئتُ إليهن كنتُ أريدُ فأنسم طرفي بينهن سويةً وفي الصدر بونٌ بينهن بعيدُ أريد أن تقول ذلك ؟ وكيف وأنا أحب معك عروس الزمالك ؟

أحبها من أجلك يا قلبي ، وأحبها لأنها سمية الاسم الذي تعرف وأعرف

أحب التي هنا والتي هناك ، وأطلع كما يطلع القمر بكل مماء ، وأهيم هيام النسيم بجميع الحداث والبتاتين

ولكن متى نجيب صاحبة الجدائل المطرة يا قلبي ؟

حدثني متى نجيب ، فقد يحملها اليأس على الصدود

أيها الجمال

تحدث ولا تقل غير الحق

هل عرفت قلباً أشرف من قلبي ، وضميراً أطهر من ضميري ؟

وأنت أيها الليل

هل عرف المحبون من أسرارك ما عرفت ؟ وهل استصبعوا بظلامك كما استصبحت ؟

« مصر الجديدة »

زكي مبارك